

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٢ - سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

مكية ، وآيها أربع . روى البخارى^(١) عن عائشة رضی الله عنها أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية . وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم : (قل هو الله أحد) . فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ ، فقال : سلوه لأى شيء يصنع ذلك . فسألوه . فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبي ﷺ : أخبروه أن الله تعالى يحبّه .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن أبي مسعود رضی الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن . وأخرجه البخارى في قصة . وروى الإمام أحمد^(٣) عن أبي ابن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمد ! انسب لنا ربك . فأنزل الله تعالى هذه السورة .

- (١) أخرجه في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ١ - باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، حديث رقم ٢٥٩٦ .
- (٢) أخرجه بالصفحة رقم ١٢٢ من الجزء الرابع .
- (٣) أخرجه عن أبي سعيد الخدرى في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ١ - باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، حديث رقم ٢٠٨١ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)

[٢] (اللَّهُ الصَّمَدُ)

[٣] (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ)

[٤] (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)

« قُلْ هُوَ » أى الخبر الحق المؤيد بالبرهان الذى لا يرتاب فيه ، وهو ما يعبر عنه النحويون بالقصة أو الحديث أو الشأن . قال أبو السعود : ومدار وضعه موضعه ، مع عدم سبق ذكره ، الإيدان بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد ، وإليه يشير كل مشير ، وإليه يعود كل ضمير « اللَّهُ أَحَدٌ » أى واحد فى الألوهية والربوبية . قال الزمخشري : (أَحَدٌ) بمعنى واحد . وقال ابن الأثير : (الأحد) فى أسمائه تعالى ، الفرد الذى لم يزل وحده ولم يكن معه آخر . والهمزة فيه بدل من الواو . وأصله (وحد) لأنه من الوحدة . وفى (المصباح) : يكون (أحد) مرادفاً (لواحد) فى موضعين سماعاً :

أحدهما - وصف اسم البارئ تعالى فيقال هو الواحد وهو الأحد ، لاختصاصه بالأحادية . فلا يشركه فيها غيره . ولهذا لا ينعت به غير الله تعالى . فلا يقال (رجل أحد) ولا (درهم أحد) ونحو ذلك .

والموضع الثانى - أسماء العدد للقلبة وكثرة الاستعمال . فيقال أحد وعشرون ، وواحد وعشرون . وفى غير هذين يقع الفرق بينهما فى الاستعمال ، بأن (الأحد) لئنى ما يذكر معه ، فلا يستعمل إلا فى الجحد ، لما فيه من العموم ، نحو ما قام أحد . أو مضافاً نحو (ما قام أحد الثلاثة) . و (الواحد) اسم لمفتتح العدد . ويستعمل فى الإثبات ، مضافاً وغير مضاف . فيقال (جاءنى واحد من القوم) . انتهى .

وقال الأزهرى : الواحد من صفات الله تعالى ، معناه أنه لا ثانى له . ويجوز أن ينعت الشيء بأنه واحد . فأما (أحد) فلا ينعت به غير الله تعالى ، لخصوص هذا الاسم الشريف له جل ثناؤه .

قال الإمام : ونسّر الخبر لأن المقصود أن يخبر عن الله بأنه واحد ، لا بأنه لا واحد سواء . فإن الوحدة تسكون لسكل واحد . تقول (لا أحد في الدار) بمعنى لا واحد من الناس فيها . والذي كان يزعمه المخاطبون هو التعمد في ذاته . فأراد نفي ذلك بأنه أحد . وهو تقرير لخلاف ما يعتقد به أهل الأصلين من الجوس ، وما يعتقدونه القائلون بالثلاثة ، منهم ومن غيرهم . وسيأتى لابن تيمية كلام آخر في سر إثاره بالتكثير « اللَّهُ الصَّمَدُ » أى الذى يصمد إليه في الحوائج ، ويقصد إليه في الرغائب . إذ ينتهى إليه منتهى السؤدد ، قاله الغزالي في (المقصد الأسنى) . وهكذا قال ابن جرير^(١) : الصمد عند العرب هو السيد الذى يصمد إليه ، الذى لا أحد فوقه ، وكذلك تسمى أشرافها . ومنه قول الشاعر^(٢) :

ألا بَكَرَ النَّاعِي بِخَيْرِي بِنِي أُسَدٍ بَعْمَرِ بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدِ
قال الشهاب : فهو (فَعَل) بمعنى مفعول . وصمد بمعنى قصد . فيتعمدى بنفسه وباللام وإلى . وقال ابن تيمية رحمه الله : وفي الصمد للسلف أقوال متعددة ، قد يظن أنها مختلفة وليست كذلك بل كلها صواب . والمشهور منها قولان :

أحدهما - أن الصمد هو الذى لا جوف له .

والثانى - أنه السيد الذى يصمد إليه في الحوائج .

والأول هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة .

والثانى قول طائفة من السلف والخلف وجمهور اللغويين .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٤٧ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) استشهد به في اللسان بالصفحة رقم ٢٥٨ من المجلد الثالث (طبعة بيروت) .

ثم توسع رحمه الله في مأخذ ذلك واشتقاقه والمأثور فيه ، إلى أن قال :
 وإنما أدخل اللام في (الصمد) ولم يدخلها في (أحد) لأنه ليس في الموجودات ما يسمى
 أحداً في الإنبات مفرداً غير مضاف . ولم يوصف به شيء من الأعيان إلا الله وحده . وإنما
 يستعمل في غير الله في النفي وفي الإضافة وفي العدد المطلق . وأما اسم الصمد فقد استعمله
 أهل اللغة في حق المخلوقين ، كما تقدم ، فلم يقل صمد بل قال (اللَّهُ الصَّمَدُ) فبين أنه المستحق
 لأن يكون هو الصمد دون مساواه . فإنه المستوجب لغايته على الكمال . والمخلوق ، وإن كان
 صمداً من بعض الوجوه ، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه . فإنه يقبل التفرق والتجزئة . وهو
 أيضاً محتاج إلى غيره . فإن كل ما سوى الله محتاج إليه من كل وجه ، فليس أحد يصمد إليه
 كل شيء ولا يصمد هو إلى شيء ، إلا الله . وليس في المخلوقات إلا ما يقبل أن يتجزأ ويتفرق
 وينقسم وينفصل بمضه من بعض . والله سبحانه هو الصمد الذي لا يجوز عليه شيء من
 ذلك ، بل حقيقة الصمدية وكماله وحده واجبة لازمة ، لا يمكن عدم صمديته بوجه من
 الوجوه ، كما لا يمكن ثنوية أحديته بوجه من الوجوه .

وقال أبو السعود . وتكرير الاسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمنزل
 من استحقاق الألوهية . وتعزية الجملة عن العاطف لأنها كالتنتيجة للأولى . بين أولاً ألوهيته
 عز وجل المستتبعة لكافة نعمات الكمال ، ثم أحديته الموجبة تنزهه عن شائبة التعدد والتركيب
 بوجه من الوجوه ، وتوهم المشاركة في الحقيقة وخواصها . ثم صمديته المقتضية لاستغفائه الذاتي
 عما سواه ، وافتقار جميع المخلوقات إليه ، في وجودها وبقائها وسائر أحوالها ، تحقيقاً للحق ،
 وإرشاداً لهم إلى سننه الواضح . ثم صرح ببعض ما يندرج فيما تقدم ، بقوله سبحانه « لَمْ يَلِدْ »
 تفصيلاً على إبطال زعم المقتربين في حق الملائكة والسميح . ولذلك ورد النفي على صيغة الماضي .
 أي لم يصدر عنه ولد ، لأنه لا يجانس شيء ليمكن أن يكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا .
 كما نطق به قوله تعالى (١) « أُنْثَىٰ يَسْكُونُ لَهُ وَاَلِدٌ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَاَصْحَابَةٌ » ولا يفترق إلى

(١) [٦/ الأنعام/ ١٠١] .

ما يمينهأ ويخلفه ، لا ستحالة الحاجة والفناء عليه ، سبحانه . انتهى .

وقال ابن تيمية . وقد شمل ما أخبر به سبحانه من تنزيهه وتقديسه عما أضافوه إليه من الولادة ، كل أفرادها . سواء سموها حسية أو عقلية ، كما زعمه الفلاسفة الصابئون من تولد العقول العشرة والنفوس الفلكية التسعة التي هم مضطربون فيها ، هل هي جواهر أو أعراض؟ وقد يجعلون العقول بمنزلة الذكور والنفوس بمنزلة الإناث ، ويجعلون ذلك آباءهم وأمهاتهم وآلهتهم وأربابهم القرية . وذلك شبيه بقول مشركي العرب وغيرهم ، الذين جعلوا له بنين وبنات ، قال تعالى (١) (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ وَبَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ) وقال تعالى (٢) (أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهِ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) وكانوا يقولون : الملائكة بنات الله . كما زعم هؤلاء أن النفوس هي الملائكة ، وهي متولدة عن الله ، فقال تعالى (٣) (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) والآيات في هذا كثيرة .

وقوله « وَلَمْ يُولَدْ » نفي لإحاطة النسب من جميع الجهات . فهو الأول الذي لم يتقدمه والد كان منه ، وهو الآخر الذي لم يتأخر عنه ولد يكون عنه . قال الإمام : قوله (وَلَمْ يُولَدْ) يصرح ببطلان ما يزعمه بعض أرباب الأديان من أن ابنا لله يكون لها ، ويعبد عبادة الإله ، ويقصد فيما يقصد فيه الإله . بل لا يستحي الغالون منهم أن يعبروا عن والدته بأُم الإله القادرة ، فإن المولود حادث ولا يكون إلا بمزاج ، وهو لا يسلم من عاقبة الفناء ، ودعوى أنه أزل مع أبيه ، مما لا يمكن تعقله . فهو سبحانه منزّه عن ذلك « وَلَمْ يَسْكُنْ لَهُ وَكُفُوا أَحَدًا » أي ولم يكن أحد يكافئه أي يماثله من صاحبة أو غيرها . وقال الإمام : الكفو معناه المسكافي والمماثل في العمل والقدرة . وهو نفي لما يعتقد به بعض الوثنيين في الشيطان مثلاً . فقد نفي بهذه السورة

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٠] .

(٢) [٣٧ / الصافات / ١٥١ ، ١٥٢] .

(٣) [١٦ / النحل / ٥٧] .

جميع أنواع الإشراف . وقرر جميع أصول التوحيد والتنزيه . وقال ابن جرير^(١) : الكفؤ والسكنى والكفاء ، في كلام العرب ، واحد . وهو المثل والشبه .
 وقرئ (كُفُوا) بضم الكاف والفاء وقلب الهمزة واواً . وقرئ بتسكين الفاء وهمزها ،
 وهما قراءتان معروفتان ، واقتان مشهورتان . و (له) صلة (كُفُوا) قدمت عليه ، مع أن
 حقها التأخر عنه ، للاهتمام بها ، لأن المقصود نفي الكفاة عن ذاته تعالى . وأما تأخير اسم
 كان فلمراعاة الفواصل .

(فوائد من هذه السورة)

الأولى - قال الشهاب : فإن قلت الأمور بـ (قل) من شأنه إذا امتثل أن يتلفظ بالقول
 وحده ، فلم كانت (قُلْ) من المتألف فيه وفي نظائره في القراءة ؟ قلت : الأمور به سواء كان معينا
 أم لا ، مأمور بالإقرار بالمقول . فأثبت القول ليدل على إيجاب مقوله ولزوم الإقرار به على
 مرتب الدهور .

الثانية - قال الإمام ابن تيمية : احتج بقوله تعالى (اللَّهُ الصَّمَدُ) من أهل الكلام المحدث
 من يقول الرب تعالى جسم ، كبعض الذين وافقوا هشام بن الحكم ومحمد بن كرام وغيرهما .
 قالوا : هو صمد ، والصمد الذي لا جوف له . وهذا إنما يكون في الأجسام المصمتة ، فإنها لا
 جوف لها ، كما في الجبال والصخور وما يصنع من عواميد الحجارة . ولهذا قيل في تفسيره إنه
 الذي لا يخرج منه شيء ولا يدخل فيه شيء ولا يأكل ولا يشرب . ونفي هذا لا يعقل إلا عما هو
 جسم . وقالوا : أصل الصمد : الاجتماع . ومنه تصميد المال ، وهذا إنما يعقل في الجسم المجتمع .
 وأما النفاة فقالوا : الصمد الذي لا يجوز عليه التفرق والانقسام . وكل جسم في العالم يجوز
 عليه التفرق والانقسام . وقالوا أيضا : الأحد الذي لا يقبل التجزؤ والانقسام . وكل جسم
 في العالم يجوز عليه التفرق والتجزؤ والانقسام . وقالوا : إذا قلتم هو جسم كان مركباً مؤلفاً

(١) انظر الصفحة رقم ٣٤٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة . وما كان مركباً مؤلفاً من غيره كان مفتقراً إليه ، وهو سبحانه صمد . والصمد الغني عما سواه ، فالركب لا يكون صمداً . انتهى .

وقال الرازي : قد استدل قوم من جهال المشبهة بهذه الآية في أنه تعالى جسم ، وهذا باطل لأننا بينا أن كونه أحداً ينافي كونه جسماً . فقدمة هذه الآية دالة على أنه لا يمكن أن يكون المراد من الصمد هذا المعنى ، ولأن الصمد بهذا التفسير صفة الأجسام المتضاغطة . وتعالى الله عن ذلك . فإذاً يجب أن يحمل ذلك على مجازه . وذلك لأن الجسم الذي يكون كذلك ، يكون عديم الانفعال والتأثر عن الغير . وذلك إشارة إلى كونه سبحانه واجباً لذاته ، ممتنع التغيير في وجوده وبقائه وجميع صفاته . انتهى .

وأقول: الصحيح في تأويل الصمد ما ذكرناه أولاً . وهو ما حكاه ابن جرير وغيره عن العرب في معناه . وإذا تحقق هذا ، فلا يعول على هذا الثاني ولا لوازمه .

الثالثة - قال ابن تيمية : كما يجب تنزيه الرب عن كل نقص وعيب ، يجب تنزيهه عن أن يماثله شيء من المخلوقات . في شيء من صفات الكمال الثابتة له . وهذان النوعان يجمعان التنزيه الواجب لله . وهذه السورة دلت على النوعين . فقوله (أحد) من قوله (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ينفي المماثلة والمشاركة . وقوله (صمد) يتضمن جميع صفات الكمال . فالتناقض جنسها منفي عن الله تعالى . وكل ما اختص به المخلوق فهو من النقص التي يجب تنزيه الرب عنها . بخلاف ما يوصف به الرب . ويوصف العبد بما يليق به مثل العلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك . فإن هذه ليست نقائص بل ما ثبت لله من هذه المعاني ، فإنه يثبت لله على وجه لا يقاربه فيه أحد من المخلوقات ، فضلاً عن أن يماثله فيه . بل ما خلقه الله في الجنة من الماء والشارب والملابس لا يماثل ما خلقه في الدنيا وإن اتفقا في الاسم ، وكلاهما مخلوق . فالخالق تعالى أبعد في مماثلة المخلوقات من المخلوقات إلى المخلوق . وقد سمي الله نفسه علماً حليماً رؤوفاً رحيماً بصيراً عزيزاً ملكاً جباراً متكبراً ، وسمى أيضاً بعض مخلوقاته بهذه الأسماء . مع العلم أنه ليس المسمى بهذه الأسماء من المخلوقين مماثلاً للخالق جل جلاله في شيء من الأشياء .

الرابعة - قدمنا ما ورد في الحديث من أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن .
وقد ذكروا في ذلك وجوهاً - منها ما قاله أبو العباس بن سريج : أن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام . ثلث منها الأحكام ، وثلث منها وعد ووعيد ، وثلث منها الأسماء والصفات .
وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات .

وقال الغزالي في (جواهر القرآن) : مهمات القرآن هي معرفة الله ومعرفة الآخرة ومعرفة الصراط المستقيم . فهذه المعارف الثلاثة هي المهمة . والباقي توابع . وسورة الإخلاص تشتمل على واحدة من الثلاث ، وهي معرفة الله وتقديسه وتوحيده عن مشارك في الجنس والنوع . وهو المراد بنفي الأصل والفرع والكفو .

قال : والوصف بالصمد يشعر بأنه السيد الذي لا يقصد في الوجود للحوائج سواه .
نعم ، ليس فيها حديث الآخرة والصراط المستقيم . فلذلك تعدل ثلث القرآن أى ثلث الأصول من القرآن كما قال (الحج عرفة) - أى هو الأصل والباقي تبع .

وقال ابن القيم في (زاد المعاد) : كان النبي ﷺ يقرأ في سنة الفجر والوتر بسورتي الإخلاص والكافرون . وهما الجامعتان لتوحيد العلم والعمل ، وتوحيد المعرفة والإرادة ، وتوحيد الاعتقاد والقصد . فسورة الإخلاص متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة ، وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق الشركة بوجه من الوجوه . والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذي لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه . ونفي الولد والوالد الذي هو من لازم الصمدية وغناه وأحديته . ونفي الكفو المتضمن لنفي التشبيه والتثمين والتنظير : فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له ، ونفي كل نقص عنه ، ونفي إثبات شبيهه أو مثل له في كاله ونفي مطلق الشريك عنه . وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يباين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك . ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن . فإن القرآن مداره على الخبر والإنشاء . والإنشاء ثلاثة : أمر ، ونهي ، وإباحة . والخبر نوعان : خبر عن الخالق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه ، وخبر عن خلقه - فأخلصت سورة الإخلاص الخبر عنه

وعن أسمائه وصفاته فعدلت ثلث القرآن . وخلصت قارئها المؤمن من الشرك العملي . كخلصت سورة قل يا أيها الكافرون من الشرك العملي الإرادي القصدى . ولما كان العلم قبل العمل وهو إمامه وقائده وسائقه والحاكم عليه ومنزله منازلته ، كانت سورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن ، والأحاديث بذلك تكاد تبلغ مبلغ التواتر . و (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) تعدل ربع القرآن ، وفي الترمذى^(١) : من رواية ابن عباس رضى الله عنهما ، يرفعه : (إِذَا زُلْزِلَتْ) تعدل نصف القرآن و (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن و (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) تعدل أربع القرآن . رواه الحاكم في المستدرک ، وقال : صحيح الإسناد .

ولما كان الشرك العملي الإرادي أغلب على النفوس لأجل متابعتها هواها ، وكثير منها ترتكبه مع علمها بمضرته وبطلانه ، لما لها فيه من نيل الأغراض . وإزالتها وقلعه منها أصعب وأشد من قلع الشرك العملي وإزالتها . لأن هذا يزول بالعلم والحجة ولا يمكن صاحبه أن يعلم الشيء على غير ماهو عليه ، بخلاف شرك الإرادة والقصد ، فإن صاحبه يرتكب مايدلله العلم على بطلانه وضرره لأجل غلبة هواه واستيلاء سلطان الشهوة والغضب على نفسه . فجاء من التأكيد والتكرار في سورة (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) التضمنة لإزالة الشرك العملي ما لم يجئ مثله في سورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) .

ولما كان القرآن شطرين : شطراً في الدنيا وأحكامها ومتعلقاتها والأمور الواقعة فيها من أفعال المكلفين وغيرها . وشطراً في الآخرة ومايقع فيها . وكانت سورة (إِذَا زُلْزِلَتْ) قد أخلصت من أولها وآخرها لهذا الشطر ، فلم يذكر فيها إلا الآخرة ، وما يكون فيها من أحوال الأرض وسكانها ، كانت تعدل نصف القرآن . فأحرز بهذا الحديث أن يكون صحيحاً . والله أعلم .

(١) أخرجه في : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ، ١٠ - باب ما جاء في إذا زلزلت .

الخامسة - قال ابن تيمية : سورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) أكثرهم على أنها مكية . وقد ذكر في أسباب نزولها سؤال المشركين بمكة ، وسؤال الكفار من أهل الكتاب اليهود بالمدينة . ولا منافاة . فإن الله أنزلها بمكة أولاً . ثم لما سئل نحو ذلك أنزلها مرة أخرى . وهذا مما ذكر طائفة من العلماء . وقالوا : إن الآية أو السورة قد تنزل مرتين وأكثر من ذلك . فما يذكر من أسباب النزول المتمددة قد يكون جميعه حقاً . والمراد بذلك أنه إذا حدث سبب يناسبها ، نزل جبريل فقرأها عليه ، ليملمه أنها تتضمن جواب ذلك السبب . وإن كان الرسول يحفظها قبل ذلك . انتهى .

وقد تقدم في مقدمة هذا التفسير ، ومواضع أخر منه ، تحقيق البحث في معنى سبب النزول ، بما يدفع المناقاة في أمثال هذا . فراجعه . ولهذا السورة الشريفة تفاسير على حدة . من أمثلها كتابان لشيخ الإسلام ابن تيمية : أحدهما في تفسيرها ، والثاني في سر كونها تعدل ثلث القرآن . فاحتفظ بهما . والله الهادي .